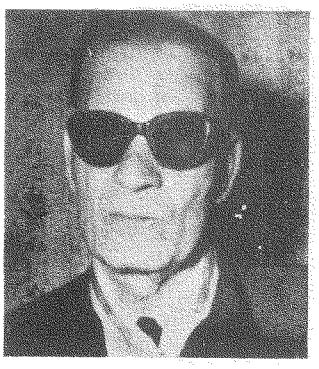

العودة إلى طه حسين

يوسف بكّار

- 1 -

يعدّ عام 1996 عام العودة الكبرى إلى طه حسين فيمصر خاصة، لأنه كان عام ذكرى مرور سبعين سنة على صدور كتاب «في الشعر الجاهلي» (1926) الكتاب ــ الأزمة كما يصفه جابر عصفور. وهذا الكتاب هو المحور الأول من محوري عودتي الجديدة إلى طه حسين بعد الذي كتبته عن كتاب عبد الرحمن بدوي المترجم «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي (دار العلم للملايين ــ بيروت 1979) فيمقالي «عودة إلى قضية الانتحال في الشعر الجاهلي» الذي نشر أولاً في «العربي» الكويتية[1] ثم أودعته كتابي «الوجه الآخر: دراسات نقدية»[2]، وبعد كتابي «أوراق نقدية جديدة عن طه حسين»[3] الذي يضمّ ثلاثة مباحث: خصوصية الذات ونفوذ الآخر: طه حسين وأستاذه نالينو، وطه حسين وقضية الترجمة، وطه حسين والأدب الفارسي.

الحقيقة أن العودة إلى طه حسين لم تتوقف، منذ وفاته (1973)، لا فيمصر ولا في بلدان الوطن العربي، وليس سهلاً تتبع مساراتها فيها جميعاً ورصدها، فذا عمل في حاجة إلى جهد أو جهود في مراجعة ما كتب عنه وتقصيّه سواء ما صدر في كتب أم نشر بحوثاً ومقالات في المجلات والصحف. لكن هذا لا يعفي من التذكير ببعض تلك المسارات خاصة ما يتصل منها بالمشاركات الجماعية التي منها كتاب «طه حسين وقضية الشعر» لعدد من الدارسين[4]، وكتاب «ذكرى طه حسين» لجمهرة ممن شاركوا في إحياء ذكراه[5]، وكتاب «طه حسين كما يعرفه كتّاب عصره» لمجموعة من الباحثين[6]، والعدد الخاص الذي صدر في دورية «فكر» بإشراف المرحوم طاهر عبد الحكيم في مارس/آذار 1989 بعنوان «طه حسين مائة عام من النهوض العربي» بمناسبة الذكرى المئوية لمولده، وهو يشتمل على عدد من البحوث والمقالات لباحثين من مصر والوطن العربي. وتزامن هذا الإصدار مع «مهرجان طه حسين» (الذكرى المئوية) في جامعة «المنيا» المصرية، وجامعة المنيا كانت الرائدة في إقامة مهرجانات ذكرى طه حسين، سنوياً، وكان يشرف عليها عبد الحميد إبراهيم وشاركت في اثنين منها (1983 و 1989).

وفي عام 1989 (11 - 14 تشرين الثاني) عقدت جامعة القاهرة (قسم اللغة العربية وآدابها) حلقة نقدية فيالذكرى المئوية لميلاد طه حسين تحت عنوان «طه حسين: مستقبل الثقافة العربية، الإنجازات والآفاق الجديدة» بإشراف المرحوم عبد المحسن طه بدر وجابر عصفور كنت أحد المدعوين إليها، لكن بحوثها ــ في ما أعلم ــ لم تر النور بعد. ولعل جابر عصفور، وهو الآن أمين عام المجلس الأعلى للثقافة بمصر، يبادر إلى نشرها.

ولعلّ أبرز مسارات العودة إلى طه حسين هو عمل عبد الرشيد الصادق محمودي الذي تكفل كتابات طه حسين الفرنسية جمعاً وترجمة وتعليقاً، وأخرجها في كتاب عنوانه «من الشاطىء الآخر: طه حسين في جديده الذي لم ينشر سابقاً»[7].

- 2 -

2 - 1:

عقد المجلس الأعلى للثقافة بمصر في 16و 17 أبريل/ نيسان 1996 ندوة علميّة بمناسبة مرور سبعين عاماً على صدور كتاب «في الشعر الجاهلي» شارك فيها أربعون من النقاد والباحثين والكتّاب الصحفيين المصريين، وتوزعت على سبعة محاور: الأبعاد الأدبية، والدلالات الفكرية، والدلالات التاريخية، والأصول التاريخية، والتأصيل الأدبي، والأبعاد المنهجيّة، والدلالة الباقية. وكان الهدف منها، كما يرى نبيل فرج إعادة الاعتبارلنصّ أقلّ ما يوصف به أنّه من علامات النهضة الأدبيّة الحديثة، التي رفضت المسلمات التقليدي... ما لم تثبتها الأدلة العقلية التي تُبنى على الشك والاستقراء والاستنتاج»[8].

من أهمّ ما تمخضت عنه الندوة المخبأ الذي أظهره إبراهيم عبد الرحمن الأستاذ بجامعة عين شمس في بحثه «التأصيل الأدبي لكتاب في الشعر الجاهلي»، وهو ترجمته للوثيقة المهمة عرض المستشرق مرجوليوث لكتاب «فيالأدب

الجاهلي» بديل «في الشعر الجاهلي» في «المجلة الآسيوية الإفريقية» عام ١٩٢٧ أي المجلة نفسها التي كان قد نشر هو نفسه فيها عام ١٩٢٥ بحثه «أصول الشعر العربي» في الوقت نفسه، تقريباً، الذي صدر فيه «في الشعر الجاهلي». وأهم ما في الوثيقة قول صاحبها «وفكرة الكتاب مماثلة إلى حدّ كبير للفكرة التي أدرت حولها بحثي عن (أصول الشعر العربي)... وبذلك توصّل كلّ منا مستقلاً عن الآخر تماماً إلى نتائج متشابهة. وتتلخص هذه الفكرة في أن النصوص الشعرية التي يفترض أنها من عمل شعراء جاهليين مشكوك في صحتها، وهو ما يجعل منها نصوصاً لا يصح اتخاذها وثائق تاريخية أو لغوية»[9].

وقمين بالإشارة أن طه حسين نفسه نفى تأثره بمرجوليوث في رسالته إلى مفتاح طاهر بتاريخ 1966/2/12 التي أجاب فيها عن عدد من الأسئلة وجّهها إليه الباحث الذيكان يعدّ رسالة دكتوراة بالفرنسية عن «طه حسين: نقده الأدبي ومصادره الفرنسية». قال طه حسين «إن المستشرقين الذين يعتقدون أنني تأثرت بمرجوليوث عندما كتبت كتابي في الشعر الجاهلي مخطئون بالتأكيد. فأنا لم أقرأ دراسة مرجوليوث إلاّ بعد سنة من صدور كتابي» جواباً عن هذا السؤال: «يميل بعض المستشرقين ــ عن غير حق فيما أعتقد ــ إلى أن يتلمسوا مصادر كتابك «في الشعر الجاهلي» في الدراسة التي كتبها مرجوليوث عن الشعر القديم بدلاً من أن يتلمسوها في الأدب الفرنسي. فما رأيك في ذلك[10].

2 - 2:

وكانت مجلة «القاهرة» المصرية قد أعادت، قبل انعقاد الندوة، طبع كتاب «في الشعر الجاهلي» مرّة ثانية[11] بعد طبعتها الأولى في عدد خاص[12] ــ مشفوعاً بكل ما نشر عنه في المرة الأولى: «قرار النيابة في قضية كتاب في الشعر الجاهلي» لمحمد نور (ص 450 - 462) الذي نشر أول مرّة في كتاب «محاكمة طه حسين» لخيري شلبي، ودراسة علي فهمي «التحقيق والتنوير» (ص 464 - 470)، وبحث وائل غالي «ديكارت الغائب عن طه حسين» (ص 472 - 475)، ودراسة عبد الرحمن أبو عوف «إشكالية أسلوب وبناء الرواية عند طه حسين» (ص 476 - 485)؛ فضلاً عن رسائل سامي الكيالي السوري وعبد ا« الطيب المجذوب السوداني إلى طه حسين (ص 373 - 387) التي جاءت قبل نصّ الكتاب والتي قدم لها نبيل فرج.

وقد خصّص جابر عصفور جزءاً من مقاله «الكتاب ــ الأزمة»[13] للكلام على صنيع «القاهرة» ذاك ونقده مما حفز وائل غالي على الرد عليه بمقاله «لا علاقة لطه حسين بديكارت» في الأسبوع التالي[14]، لأن جابر عصفور قال في مقاله «وكان حرياً بمجلة القاهرة أن تستعدّ لهذه الذكرى الحدث، وأن تجد فيها سبيلاً لإعادة النظر في قضية حرية الفكر في الحياة الثقافية العربية كلّها، لا أن تكتفي بنشر دراسة سبق نشرها لعلي فهمي، ودراسة أخرى تلخص نتائج سبق أن أكدتها دراسات سابقة معروفة»! أمّا وائل غالي فأكدّ فيختام ردّه «أن طه حسين لم يتأثر قطّ بديكارت»[15]. في حين أن يوسف سلامة، الذي رأى جابر عصفور أن وائل غالي أفاد منه، ذهب إلى أن الاهتمام بالمنهج هو الذي يقرّب طه حسين من ديكارت، وذلك في بحثه «ديكارت وطه حسين: ملاحظات تمهيدية حول مشكلة المنهج عند طه حسين»، في العدد الأول من «قضايا وشهادات» عن «طه حسين: العقلانية، الديمقراطية، الحداثة» (ص 69 - 111) التي كانت تصدرها «مؤسسة عيبال» بدمشق، وكان جابر عصفور أحد أعضاء هيئة تحريرها. ويعدّ عذا الكتاب الذي يضمّ دراسات مهمة عن طه حسين من أهم مسارات العودة جميعاً إلى العميد الراحل.

3 - 2

وأخرج عبد المنعم تليمة الأستاذ بجامعة القاهرة رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب فيها طبعة أخرى من الكتاب بمقدمة طويلة صدرت عن «دار النهر» بالقاهرة في المدة نفسها.

- 3 -

ولا بدّ لمسيرة العودة إلى طه حسين في موضوع الشعر الجاهلي تحديداً من أن تضمّ جهد عبد الرحمن بدوي في مقدمته التي كتبها لمقالات نفر من المستشرقين جمعها وترجمها وأصدورها في كتاب «دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي». يقول: «كلّما أتذكر الحملة الشعواء الهوجاء التي أثيرت حول كتاب (في الشعر الجاهلي)... وبديله (في الأدب الجاهلي)... فإن عجبي لا ينقضي:

أولاً: لأن ما قاله عن انتحال الشعر الجاهلي، وفساد رواته وروايته، وما أضيف إليه أو حذف منه هو كلام سبق أن قاله وأشبع القول فيه علماء الأدب واللغة القدماء منذ القرن الثاني للهجرة، وخصوصاً في القرنين الثاني والرابع». ويستشهد بابن سلاّم الجمحي صاحب «طبقات فحول الشعراء» وينقل نصوصه، ويسجّل نتائجه.

وثانياً: «أن الدكتور طه حسين في كتابه ذاك لم يكن أول باحث في العصر الحديث بحث في صحة الشعر الجاهلي وأسباب الانتحال فيه، بل كان على العكس من ذلك تماماً، آخرهم». وهنا يستعرض، تاريخياً، المستشرقين الذين عُنوا

بالقضية ويذكر عنوانات بحوثهم.

وخلص بدوي، إلى أن «الشيء المؤسف حقّاً هو أن كلّ هذه الأبحاث قد بدأت في الستينات من القرن الماضيونمت واتّسعت، بينما ظلّ «المشتغلون» بالأدب العربي في العالم العربي والإسلامي بمعزلٍ عنها، وفي جهل فاحش بها... ولو كانوا على علم بما كتبه القدماءمن علماء العربية مثل الجمحي، وأقصد بالعلم هنا الفهم الدقيق والتبصر لا مجرد الاطلاع، ثم لو كانوا اطلعوا على أبحاث المحدثين من المستشرقين التي بدأت قبل ذلك بأكثر من خمسة وستين عاماً لما رأوا في كتاب (في الأدب الجاهلي) شيئاً غريباً أو مستنكراًلو خلصت نيّاتهم، ولرحبوا به بوصفه إسهاماً عربياً له قيمته في هذا المجال، ولواصلوا السير في هذا الطريق الواعد بالنتائج العظيمة».

- 4 -

إن تكن ندوة المجلس الأعلى بدّدت، بظهور وثيقة مرجوليوث «اتهام طه حسين بأنه سرق فكرة الشك في الشعر الجاهلي» من ذلك المستشرق، كما يقول نبيل فرج أيضاً؛ فإنه يظلّ ثمة أثر واضح لمستشرق آخر في طه حسين هو الإيطالي «كارلو نالينو» (1872 - 1938) صاحب الصلة البعيدة بمصر. فقد جاءها عام 1893 موفداً من وزارة معارف بلده للدراسة فيالقاهرة التي ظلّ فيها إلى شهر مايو/أيّار 1894. وأصدر بعد عودته كتابه التعليمي «اللغة العربية في لهجتها المصرية». ثمّ دعته الجامعة المصرية القديمة لتدريس تاريخ الفلك عند العرب في العام الدراسي 1910/1909، وتمخض عن هذا كتابه المشهور «علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى» الذي طبع أول مرة بروما عام 1911.

ودرّس نالينو في العامين الدراسيين التاللين تاريخ الأدب العربي، فكانت محاضراته هي التي سمعها منه طه حسين ودرسها عليه، وهي التي نشرت أول مرّة في مجلة «الهلال» (1915 - 1917) قبل أن تتولى ابنته «ماريا» (مريم) أمر إعدادها ثم إخراجها في الكتاب المعروف «تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أميّة» الذي قدّم له طه حسين نفسه ونشرته دار المعارف بمصر عام 1955.

ثم دعت الجامعة الحكومية نالينو بين عامي 1928 و 1929، لأربعة شهور كلّ سنة، كي يدرّس تاريخ اليمن بكلية الآداب. وفي عام ١٩٣٣ عينّ عضواً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكانت آخر زيارة له لمصرفي شتاء عام 1937 من أجل حضور جلسات المجمع.

المهم في الأمر أن نالينو كان أحد المستشرقين الذين استقدمتهم الجامعة المصرية الأهلية (جامعة القاهرة الآن) للتدريس فيها، وأن طه حسين تعرف عليه بدءاً من السنة الدراسية 1911/1910، فاعتاد ــ كما يقول ــ أن يخرج مصبحاً إلى الأزهر يسمع فيه دروس الأدب من «سيّد علي المرصفي»، ويخرج منه في المساء إلى الجامعة المصرية فيسمع فيها دروس الأدب من نالينو. ولقد كان لتلك الدروس أثرها الكبير في طه حسين باعترافه هو، بحيث ظلّ نالينو ثاني اثنين يذكّر العميد بدينهما الكبير عليه وعمق تأثيرهما في حياته العقلية والعلمية كلها من خلال مسربين متوازيين، لكنهما متكاملان. يقول فيتقديمه لكتاب أستاذه: «أمّا أنا فقد سجلت غير مرّة وأسجل الآنأني مدين بحياتي العقلية كلها لهذين الأستاذين العظيمين: سيد علي المرصفي... وكارلو نالينو. أحدهما علّمني كيف أقرأ النص العربي القديم وكيف أفهمه في نفسي وكيف أحاول محاكاته، وعلمني الآخر كيف استنبط الحقائق من ذلك النص، وكيف أُلائم بينها وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس ويجدون فيه شيئاً ذا بال. وكلّ ما أتيح لي بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور الأول من أطوار الشباب. بفضلهما لم أحسّ الغربة حين أمعنت في قراءة كتب الأدب القديم، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين في جامعة باريس، وحين أمعنت في قراءة كتب الأدب الحديث. فلا غرابة، إذاً، أن تكون حياتي كلّها براً بهذين الأستاذين وإكباراً لهما واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا إليّ من معروف وما أسديا إليّ من جميل...».

لا أربد أن أفصّل القول هنا في موضوع تأثّر طه حسين بنالينو، فهو مفصّل في كتابي «أوراق نقدية جديدة عن طه حسين»، غير أنه لا مندوحة لي من أذكرّ بأمرين مهمين يلقيان الضوء على الموضوع بأكمله:

أولاً: إن في مقدمة نالينو لكتابه جمهرة من الأصول والقواعد العلميّة التي تركز على «صناعة» البحث العلمي وأساليبه، والاتساع في المطالعة والمعرفة، وضرورة امتحان آراء السلف والحثّ على «الاجتهاد» الذي هو أهمالسبل إلى «الجديد» و «التجديد».

وفي تقديم طه حسين للكتاب نفسه جهر بإعجابه وانبهاره بالأصول العلمية التي أعلنها نالينو وطبّقها في كتابه. وإذا ما طفقنا نبحث عن تأثيرها في التلميذ الشابّ. آنذاك، ألقيناه واضحاً في عقله ومنهجه وطرائقه وتواليفه وبعض مناحي حياته ومذهبه، فضلاً عن جوانب من نفوذ آراء الأستاذ في التلميذ، وهو ما كشفت عنه في كتابي المذكور كشفاً يؤكد تأثر طه حسين بمنهج نالينو وآرائه معاً، وليس بالمنهج فقط كما قال طه حسين «تأثري بالمستشرقين شديد جداً، ولكن لا

بآرائهم بل بمناهجهم في البحث. وهذا يوصلني أحياناً إلى أن استكشف كثيراً من الخطأ في آرائهم، لأن علمهم بالعربية وأسرارها ودقائقها أقل من علم المتخصّصين العرب» وهو يجيب عن سؤال فؤاد دوارة «ما مقدار تأثّرك بالمستشرقين؟»[16]. ولقد حصرت آراء نالينو التي تأثر بها طه حسين في عدد من المسائل وأثبتّ نصوصها حرفياً عند كلّ من الأستاذ والتلميذ وليس ثمة من حاجة إلى إعادتها هنا.

أمّا الأمر الآخر، فمفهوم «الشكّ» عند طه حسين الذيكثيراً ما خاض فيه الخائضون. سأل غالي شكري طه حسين في أخريات حياته فيحوار معه ــ في ما سأل ــ «اعترض بعض النقاد على تطبيق منهج الشك الديكارتي على شخصيّة فنيّة معروفة كشخصية المتنبي في كتابكم (مع المتنبي). فما تعليقكم على مثل هذا الرأي؟ «فأجاب: «يساورني الشك في استقبالكم لكلمة (شكّ) التي وردت في كتابي (في الشعر الجاهلي) بمعنى بعيد عمّا كان يجول في خاطري عند اختيار هذا اللفظ، كما يساورني الشكّ في تلقيكم معنى (الشكّ) عند (ديكارت). لا بأس من أن أكرر أنني قصدت التمحيص على ضوء العقل وعدم التسليم الأعمى بما رواه الأوّلون وأخبرنا به السلف. هذا الكلام مجرد منهج يقبل التطبيق على الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الحديث سواء بسواء»[17]. أو لم يحضج أستاذه نالينو طلابه في الجامعة المصرية على عدم التسليم المطلق بآراء السلف وقبولها كلّها دون «لماذا» و «لأن» و «كيف»، لأن تقدّم العلوم النظرية العقلية، كما يقول[18] «مرتبط، بل متعلق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقة التمحيص والنظر. فيجب علينا أن ننقد أقوال السابقين لنا انتقاداً صحيحاً سالماً خالياً عن كلّ غرض دنيّ وميل شخصي. إن ذلك الانتقاد المقرون بالاجتهاد يفيدنا علماً ويساعدنا على تحسين العمل، وهو الذييسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقاً بها»؟

-5-

المحور الآخر من محوري العودة إلى طه حسين هو محور «الأدب المقارن»، وهو موضوع جديد يكاد يكون من الموضوعات التي تخطّتها عناية الدارسين سواء من عنوا منهم بطه حسين عناية خاصة أم الذين حاولوا أن يؤرّخوا للأدب المقارن عند العرب تنظيراً وتطبيقاً. أقول «يكاد» لأستثني من هؤلاء جميعاً أستاذي الجليل شكري عياد، مدّ ا« في عمره، فهو ــ في ما أعلم ــ أول من نبّه في مقاله «طه حسين والثقافة اليونانية» (1966) المنشور فيك تابه «تجارب في الأدب والنقد»[19] على صلة طه حسين بالأدب المقارن في كتابه «من حديث الشعر والنثر» الذي طبع أول مرّة بمطبعة الصاوي بالقاهرة عام 1936. غير أن كلّ ما قاله أستاذنا عن الكتاب هو «يجب أن تؤرخ بظهوره نشأة الأدب المقارن عندنا» (ص 55). ولقد حفزتني قولة الأستاذ هذه على أن أهتم بالموضوع وألاحقه في آثار طه حسين فبان لي فيه ما يأتي:

1 - 5:

استعمل طه حسين مصطلح «المقارنة» أول مرّة، وهو طالب في فرنسا مهد الأدب المقارن، في رسالته للدكتوراة التي قدّمها إلى جامعة «السوربون» عام 1917 ونال بها درجة «الدكتوراة» والتي ترجمها المحامي محمد عبد ا« عنان إلى العربيّة بعنوان «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية»، وطبعت أول مرّة عام 1925 بمطبعة الاعتماد بالقاهرة ضمن منشورات «لجنة التأليف والترجمة والنشر» المشهورة. يقول في المقدمة، بقطع النظر عن صحة ما يقول وهو ما عدل عنه لاحقاً: «اعتقد بعضهم أن شعر عمر الخيّام شاعر الفرس ينمّ عن «تأثير» أبي العلاء، ولكن ليس ثمة دليل تاريخيّ يؤيّد أن عمر قرأشعر أبيالعلاء. هذا فضلاً عن أنه بينما نجد تشاؤم الفلسفة العربية مظلماً إذ تشاؤم الفرس طروباً بهيجاً، ولئن تشابهت كتاباتهما من بعض الوجوه فإن أوجه اختلافهما واضحة لا تسمح لنا بالإفاضة في (المقارنة) بينهما»[20].

2 - 5:

في عام 1927 أصدر طه حسين «فياودب الجاهلي» بديلاً لكتاب «في الشعر الجاهلي»، وتحدث فيالقسم الأول (الكتاب الأول كما سمّاه هو) وعنوانه «الأدب وتاريخه» عن «درس الأدب فيمصر» فركّز فيه على مسألة «التأثر والتأثير» وهي عماد المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن وركنها المكين، ومما قال: «كيف السبيل إلى أن يدرس الأدب العربي درساً صحيحاً إذا لم تدرس الصلة الماديّة والمعنويّة بين اللغة العربيّة واللغات الساميّة، وبين الأدب العربي والأدب الساميّ؟... وكيف السبيل إلى درس الأدب العربيّ إذا لم تدرس اللغة اليونانية واللاتينية وآدابهما، ولم نتبين مقدار ما كان لحضارة اليونان والرومان من (تأثير) في أدبنا وفلسفتنا وعلمنا، ولم نتبين مكانة أدبنا العربي بالقياس إلى هذه الآداب اليونانية واللاتينية؟.... وكيف السبيل إلى درس الأدب العربي إذا لم ندرس اللغات الإسلامية المختلفة، ولا سيما الفارسيّة منها، ونتبيّن ما كان لهذه اللغات وآدابها من تأثير في أدبنا العربي الذي لم ينشأ في برج من العاج، وإنما تأثّر بالآداب المختلفة وأثّر فيها؟.... وكيف السبيل إلى درس الأدب العربي، إذا لم ندرس اللغات الأوروبية الحيّة، ونتبين تأثيرها في أدبنا الحديث؟....»[21].

3 - 5:

ألقى طه حسين في نوفمبر/تشرين الثاني 1932 محاضرة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عنوانها «الأدب العربي ومكانته بينالآداب الكبرى العالمية» هي التي جعلها أول مبحث من مباحث «من حديث الشعر والنثر»(1936). ولست إخال أن ما جاء فيها هو الذي حمل أستاذنا شكري عيّاد على أن يدعو إلى تأريخ نشأة الأدب المقارن عند العرب بظهور هذا الكتاب، لأن لفظتي «قارن» و «مقارنة» في تلك المحاضرة لا يفهم منهما المعنى المصطلحي للأدب المقارن في مدرستيه الكبيرتين الفرنسيّة والأمريكية، بل إن معناهما لا يجوز معنى «وازن» و «موازنة» بالمعنى «القيمي» (من القيمة) الذي يهدف إلى إظهار مكانة الأدب العربي بين الآداب الكبرى القديمة، فضلاً عن أنهما بعيدتان، كذلك، حتى عن مفهوم «التوازي» أو «التشابه» أو «القرابة» (Paralellism) الذي تأخذ به المدرسة الأمريكية خلافاً للمدرسة الفرنسيّة. يقول طه حسين: «هناك احتياط لا بدّ منه قبل البدء بالحديث، وهذا الاحتياط يضطرني إلى أن أنبهكم... إلى أني لن أحاول المقارنة بين الأدب العربي والآداب الغربية الحديثة، لأني سأظلم ظلماً قبيحاً إن عرضت لهذه المقارنة. فبين أيّ الأدبين العربيين نريد أن نقارن: بأدب القدماء أم بأدب المحدثين؟

فإن أردنا أن نقارن بين الأدب العربيّ القديم والآداب الأوروبيّة الحديثة، ظلمنا الأدب العربيّ لأننا نكلّفه أكثر مما يتكلّف. فليس الأدب العربي ملزماً بأن يتنبأ عمّا ستصير إليه الحضارة الحديثة... لأن الظروف التي أحاطت بالأدب العربي القديممخالفة للظروف التي تحيط بالآداب الأوروبية الكبرى.

وإذا أردنا أن نقارن بين الأدب العربي الحديث والآداب الأوروبية الكبرى ظلمنا أنفسنا، ذلك أنّا فيبدء نهضتنا لم نكد نتحلّل من القيود الكثيرة التي تحول بيننا وبين الحياة العقلية الحرّة...»[22].

لهذا كلّه، قال «لن أنعرّض إذن، للآداب الأوروبية، ولا للأدب الحديث الذي ننشئه ونعيش به، وإنّما أريد أن أحصر موضوع الحديث في (المكانة) التي كانت لأدبنا القديم بين الآداب الكبرى. والآداب الكبرى عنده، آنذاك، هي: اليوناني القديم، والروماني أو اللاتيني، والفارسي، وهي التي «نستطيع أن نتحدث عنها، ونجتهد في أن نتعرف (مكانة) أدبنا منها»، و «... أريد أن أتعرف (المكان) الذي يجب أن يكون فيه أدبنا بين هؤلاء»[23].

قد يكون الذي لفت انتباه شكري عيّاد ما جاء في بعض محاضرات طه حسين الخمس عن «الحياة الأدبية العربية في القرن الثالث الهجري: الشعر»، التي ألقاها في قاعة «يورت» التذكارية في شهري فبراير ومارس/شباط وآذار 1933، ثم نشرها في الكتاب نفسه. يقول طه حسين في حديثه عن شعراء القرن الثالث الهجري وعن أبي تمّام وابن الرومي وابن المعتزّ خاصّة «وكان هؤلاء الشعراء قد اضطروا إلى أن يأخذوا بحظوظ مختلفة من العلم والثقافات الشائعة في هذا العصر، فليس من سبيل إلى أن نفهم طبائعهم وأذواقهم في الشعر إلاّ إذا فهمنا هذه الثقافات التي تأثر بها هؤلاء. والواقع أننا لا نستطيع أن نفهم شاعراً كأبي تمّام إلاّ إذ عرفنا هذه المؤثرات العلمية المختلفة التي تأثر بها هذا الشاعر...، هو عالم بالفلسفة اليونانية والثقافة الفارسية، والثقافات الأخرى وآثار كلّ هذه الثقافات والعلوم واضحة في شعره، ولا يمكن أن يفهم إلاّ إذا ردّ إلى هذه الثقافات، ومثل هذا يمكن أن يقال في ابن الرومي وابن المعتزّ»[24].

ألا يشبه كلام طه حسين النظري هذا المبدأ الذي نهضت عليه المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن وإن لم تكن قد وجدت آنذاك؟ أمّا في التطبيق فقد أحال العميد على عموريّة أبي تمّام «البائية»:

السيف أصدق إنباءً من الكتب

في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

التي تظهر فيها «الثقافة الفارسيّة واضحة جداً في مهاجمته للمنّجمين وتصريحه بكذبهم. ثم تظهر الثقافة اليونانية عندما يذكر مدينة عمورية وقدمها وثباتها. ثم يظهر أثر هذه الثقافات... عندما ندرس طبيعة الخيال الشعري عند أبي تمّام. فنحن نجد في هذا الخيال أثراً للحياة العربية وأثراً للطبيعة اليونانية»[25].

وقد يكون ما في شعر أبي تمّام وشعر أبي نواس قبله ممّا له صلة بالتنجيم أثراً من آثار «الكتب النجوميّة» الفارسيّة التي ترجمها «آل نوبخت» أو التي كتبوها هم مفيدين منها، فكتب النجوم الفارسيّة كانت أول ما ترجم إلى العربية في هذا العلم[26].

4 - 5:

وفي عام 1951 كتب طه حسين مقدمة جديدة للطبعة الرابعة من كتابه «تجديد ذكرى أبي العلاء» الذي طبع أول مرّة بمطبعة الواعظ بمصر عام 1915 بعنوان «ذكرى أبي العلاء»، وهو الرسالة التي حصل بها على درجة الدكتوراة من الجامعة المصرية في 5 مايو/أيار 1914.

في هذه المقدمة التي كتبها في 14 ديسمبر/كانون الأول

1951 تتضح عنده الدلالة المعرفية والمصطلحية للمقارنة:

ـ «وقد أردت سنة أربع عشرة وتسعمائة وألف أن أقدم إلى الجامعة رسالة أجوز بها امتحان عالميتها... عرضلي أن أدرس ما أحدثت الفاريّة في العربية من الأثر أيام بني العباس. ولكن جهلي بالفارسيّة حال بيني وبين هذا الموضوع المفيد»[27].

ـ «والمقالة الخامسة (يعني فلسفة أبي العلاء) من هذا الكتاب تحتاج إلى تفصيل في (المقارنة) بين أبيالعلاء وأبيقور... لم أكن أعرف أن هذا الشاعر (لوكريس) وهذا الناشر (شيشرون) قد لخّصا فلسفة أبيقور تلخيصاً يمكن الاعتماد عليه. وإنما عرفت ذلك في أوروبا حين أردت أن أتخذ من (المقارنة) بين أبي العلاء وأبيقور موضوع رسالة فلسفية أقدمها لجامعة مونبليه»[28].

ـ «وقد كان من الحق أن أضع فصلاً موجزاً بين أبي العلاء وبين عمر الخيام، ولكن المصادر العربية تعوز الباحث عن عمر. وآثاره في الفرنسية والإنجليزية ممتنعة عليّ لجهلي هاتين اللغتين، وهي في الفرنسية لا تصلح للبحث المستقصي»[29].

هنا عدل طه حسين عن رأيه (عام 1917)، وهو طالب دكتوراة في باريس، من عدم إمكان المقارنة بين المعري والخيّام لمّا تكشّفت له حقائق جديدة في الموضوع. وهذه هي سمات العلماء وصفة من صفات طه حسين الذي تظل طريق العودة إليه وإلى تراثه الثرّ مفتوحة ميسّرة للسكالكين الجادين والباحثين عن «الجديد».

الهوامش

(1) العدد 281 ـ نيسان 1982.(2) دار الثقافة ـ الدوحة/قطر 1986.

(3) دار المناهل ـ بيروت 1991.

(4) الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1975.

(5) الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1977.

(6) دار الهلال ـ القاهرة (دون تاريخ).

(7) ادفرا باريس ـ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ـ بيروت 199.

(8) طه حسين وكتابه في الشعر الجاهلي: جوهر الكلمة ومهاد البحث. مجلة الشعر ـ القاهرة. العدد 83 يوليو/تموز 1996، ص 33.

(9) المصدر نفسه، ص 33.

(10) من الشاطىء الآخر، ص 203 - 206.

(11) العدد 159 شباط 1996، ص 389 - 449.

(12) العدد 149 نيسان 1995.

(13) جريدة الحياة ـ لندن. الإثنين 19 يونيو/حزيران 1995.

(14) الحياة. الإثنين 26 حزيران 1995.

(15) من آخر ما صدر في هذا المجال بحث لعبد الباسط عبد المعطي عنوانه «لا علاقة بين طه حسين وديكارت» المنشور في عدد مجلة «القاهرة» الخاص عن «ديكارت» (العددان 167 - 168)، أكتوبر ـ نوفمبر 1996، ص 91 - 105.

(16) عشرة أدباء يتحدثون، ص 109. دار الهلال ـ القاهرة 1965.

(17) هكذا تكلم طه حسين لآخر مرّة. مجلة الثقافة العربية الليبية. العدد (9) يوليو/تموز 1974، ص 52 - 53.

(18) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أميّة، ص 20. دار المعارف ـ القاهرة. ط 2: 1970.

(19) دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1967.

(20) المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين م 9:8. دار الكتاب اللبناني ـ بيروت. ط 1975:2.

(21) في الأدب الجاهلي، ص 17 - 18 دار المعارف ـ القاهرة. ط 2 (دون تاريخ).

(22) من حديث الشعر والنثر، ص 9. دار المعارف ـ القاهرة. ط 9 (دون تاريخ).

(23) المصدر نفسه، ص 10.

(24) المصدر نفسه، ص 88.

(25) المصدر نفسه، ص 90.

(26) محمد محمدي: الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه، ص 19. الجامعة اللبنانية ـ بيروت 1967.

(27) تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 9 - 10 (المقدمة). دار المعارف ـ القاهرة. ط 1963:6.

(28) المصدر نفسه، ص 13.

(29) المصدر نفسه، ص 13 - 14.